الغباء الاجتماعى ...

للاستاذ محمد عثمان محمد

فى ركن هادىء بأحد المقاهى العامة ، جلس اثنان يتحاذبان الحديث ، أحدهما محام له ماضيه وشهرته ، والثانى طبيب مشهور يعمل كبيراً لجراحى إحدى المؤسسات .

وتشاء الصدفة البحتة أن يجر بها أثناء جرسهما صديق قديم للمحامى ، ليست له معرفة بالطبيب ..

وبالرغم من أن هذا الصديق مثقف ثقافة عالية ، وحائز على أرقى الدرجات العلمية ، إلا أنه لم يراع الكياسة الواجبة ، واللباقة الأدبية فى مقام التحية والترحيب ..

فهو مثلاً ، لم يعط الفرصة لصديقه المحامى حتى يقدمه إلى صديقه الطبيب ، بل رفع الكلفة من تلقاء نفسه وأسرع يمد يده إلى الطبيب الجراح مسلماً هازاً يده فى حرارة وحماس شديد ، كأن له به سابق معرفة ، أو كأنه صديق قديم لم يره من زمن بعيد

وبمجرد جلوسه أخذ يسترسل فى الحديث ، منتقداً الطب والأطباء قائلا إنهم فئة جشعة تجردت من الرحمة قلوبها ، فئة أعمتها الأنانية الخبيثة ، وبهرتها المادة الزائفة ببريقها الأخاذ ، فسرعان ما طمست ضمائرها ، ففقدت إنسانيتها التى كانت فيما مضى تعتز بها أيما اعتزاز .. تصوروا أن بعضهم يرفض المريض قبل المساومة .. إلى آخر ما فى جعبته من مثل هذا اللغو المسترسل حتى احمر وجه صديقه المحامى خجلا ..

أمثال هذا الصديق ، كثيرون فى المجتمعات المختلفة ، والأوساط المتباينة فى الشرق وفى الغرب .. تجدهم بين الطبقات الغنية الأرستقراطية ، وبين الطبقات المتوسطة الديمقراطية ، وبين الطبقات الفقيرة العالية .. تجدهم بين المتعلمين المثقفين ، وبين أنصاف المتعلمين ، وبين الأميين على السواء ..

وهؤلاء الناس ، من أمثال هذا الصديق ، يمكن اعتبارهم مرضى ، مصابون بما يسميه النفسانيون بـ « الغباء الاجتماعى » .

وهم لا يعنون بهذا الغباء ضعف الذاكرة ، أو فقدان الذكاء العقلى ، أو انطماء الشعلة الذهبية المتقدة . كلا ، فقد يكون الرجل ألمعيا ، وعالما عبقريا ، وحائزاً أرقى الدرجات الجامعية ، ومع ذلك قد يكون مصابا بهذا « الغباء الاجتماعى » .. وقد يكون الرجل أميا ، لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه مع ذلك قد يكون حاد الذكاء ، حاضر البديهة ، متحدثاً لبقاً ، يعرف كيف يترك أثراً طيباً فى نفس سامعه أو محدثه أو جليسه .. ولكنهم يعنون « بالغباء الاجتماعى » إنعدام الميزة أو السمة التى تجعل صاحبها محبوباً فى المجتمع أو فى البيئة التى يعيش فيها ..

فصاحبنا مثلا ، الذى لم يراع الذوق والكياسة وأدب المقابلة ، وأخذ يجرح شعور جليسه الطبيب الكبير — دون معرفة طبعاً — بكلمات أحر من الجمر ، ووقف صديقه المحامى موقف الحرج بدون مبرر ، لا يمكن أن يكسب يوماً أصدقاء ، ولا يمكن أن يكون محبوباً فى مجتمع من المجتمعات ... وبالتالى لا يمكن أن ينجح النجاح العملى المنشود فى الحياة ، ولاسيما إذا كان ممن يعملون فى المحيط التجارى .. ذلك لإصابته « بالغباء الاجتماعى » ، ولانعدام تلك الهبة الإلهية التى تجعل صاحبها أهلاً بالترحيب والحفاوة به فى المجتمعات والحفلات .

ويمكننا ، على ذلك ، أن نقول مؤكداً إن نجاح الفرد فى الحياة يتوقف إلى حد كبير على هذه الهبة الربانية ، أو هذه الصفة التى تجعل منه رجلاً محبوباً فى البيئات والأوساط التى يختلط بها .

وقد عزا بعض العلماء نجاح أكثر كبار رجال الأعمال والاقتصاد فى العالم إلى هذه الموهبة الوحيدة . وإلى هذه الصفة التى تجعل الفرد غير مكروه من الأفراد والجماعات ، وتجعل له القدرة الفائقة على اجتذاب القلوب .

بور سعيد

محمد عثمان محمد